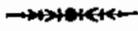


١ - مصر

في أواخر القرن الثامن عشر

كما بصفتها الرحالة سافاري

للأستاذ محمد عبد الله عنان



كانت مصر خلال العصور الوسطى كعبة لطائفة كبيرة من الرحل والباحثين يفدون عليها من المشرق والمغرب ، تجذبهم عظمتها وآثارها وعلومها وفنونها ؛ وقد ترك لنا كثير من هؤلاء الرحل آثاراً قيمة عن مصر وأحوالها في مختلف العصور . ونستطيع أن نذكر من هؤلاء ابن حوقل وعبد اللطيف البغدادي وابن بطوطة ، والبلوي ، وابن خلدون من الرحل والعلماء المسلمين ، وسركو بولو ودي جوانفيل وبييرو مارتيري من الرحل الغربيين . ولم ينقطع ورود هذا الرهط من الرحل بعد الفتح العثماني ، بل نلاحظ بالعكس أن الرحل والباحثين الغربيين يفدون على مصر منذ القرن السابع عشر في فترات متقاربة ويضمون عنها المؤلفات والبحوث المطولة ؛ ولدينا منهم في القرنين السابع عشر والثامن عشر ثبت حافل ؛ ولدينا من آثارهم مجموعة نفيسة من الوثائق والصور عن مصر في هذه الفترة . وإذا كان العصر العثماني من أغض عصور التاريخ المصري وأشدها ظلاماً ، فإن هذه المجموعة من آثار الرحل الغربيين تعتبر من أهم مراجعتنا في دراسته وتصويره . بيد أنه مما تجدر ملاحظته هو أن القرن الثامن عشر كلاً بالنسبة للدولة العثمانية فترة انحلال وضعف ؛ فقد كانت قواتها العسكرية تنهار تحت ضربات روسيا القوية ، وكانت الاضطرابات والتاعب الداخلية تقوض من صرحها القديم الشامخ ؛ وكانت مصر في ذلك الحين قد أخذت تتحرك من سباتها الطويل وتترقب الفرص لتحطم ذلك النير الناشم الذي يعصف بقواد المادية والروحانية منذ قرنين . وفي منتصف القرن الثامن عشر استطاع زعماء مصر ، بقية الأمراء من الشراكسة أن يستردوا نوعاً من الاستقلال المحلي ، وأن يبسطوا حكمهم الفعلي على مصر وأن يجعلوا سلطة الدولة العثمانية اسمية رمزية فقط ؛ وتعاقب

المشهود والمحسوس . وقد كان علم النفس كافياً حتى الآن لتليل حفظ العقول صفحات عديدة في حالة « التسيوية » أو حالة التنويم المغناطيسي أو حالة « التنويم الذاتي » أو ما يشبه هذه الحالات من عوارض الحى العصبية . فإذا رأينا حالة كالتى رواها صديقنا الأستاذ المازنى يستوعب فيها الانسان بضع صفحات لا يخرم منها حرفاً ولا نقطة ثم يبدها وهو معتقد أنه يعلها من وحى يديهته فلنرجع إلى علم النفس في وصف العوارض التى تأتى بهذه الترائب فإنه لكفيل بتليها أو بإبداء مقطع الحق فيها

وإنما العبرة من جميع ما تقدم أن نسأل : ترى لو صدر كتاب « عظماء الرياضيين » قبل كتابة المقال الذى ناقشت به الأستاذ المازنى منذ أربع عشرة سنة ، أما كان أقرب الاحتمالات إلى الذهن أننى قرأت ذلك الكتاب واستوحيت منه التحليل الذى فرقت به بين عقول الطبيعيين وعقول الرياضيين وعقول الموسيقيين ؟ أما كان من المستغرب يومئذ أن يقال إننى لم أطلع على ذلك الكتاب وإن كان مؤلفه لم يبسط فيه الرأى الذى بسطته ، ولم يتجاوز أن جمع أخبار الرياضيين ومجائهم فى سجل واحد ؟ فأما صدور الكتاب بعد كتابة المقال محقق لا شك فيه فهذا التوافق يبدو سهلاً جازماً خلوأ من الغرابة . ومن ثم ينبى أن تقدم الاستقراء العقلى - فى تمحيص الخواطر المتواردة - على استقراء التاريخ مع راحة هذا وصعوبة الاستثناء عنه ، لأن استقراء التاريخ وحده لا يكفي للبت فى جميع الأمور

ونعنى بالاستقراء العقلى أن نمتحن ذهن الكاتب وأن نتابع وجهته فى تفكيره ؛ فإذا عرفنا أنه قمين أن يقول ما قال ، وأن يخوض حيث خاض ، ويتوجه حيث توجه ، فالإتهام بعد ذلك ضرب من اللغو والتمحل ، وإن لم يكن كذلك فهو منهم ولو لم يكشفه استقراء التاريخ

أما حين يقع الاتفاق فى العبارات والحروف صفحات متواليات فليس من المروءة أن نجزم باستحالة ذلك قبل أن نمحكم إلى الاستقراء العقلى من طريق علم النفس ودرس الذهن الذى تقع له أمثال هذه الترائب ، فقد يهدينا الحكم الوئيد هنا حيث يفضلنا الحكم السريع ، ولا ضير علينا إذا تطابق الحكمان فى النهاية بعد الموازنة والمقابلة بين جميع الفروض .

هباس محمدر العقاد

ومن شمالها إلى جنوبها ، وزار جميع معالمها ومآهدها وآثارها ، ودرس جميع أحوالها وشؤونها ومجتمعاتها ، ودرس اللغة العربية والدين الاسلامي : ثم زار الجزر اليونانية ، وعاد إلى فرنسا سنة ١٧٨١ بعد غيبة دامت خمسة أعوام ؛ ووضع عن رحلته ودراساته في مصر طائفة من الرسائل المستفيضة ملأت ثلاث مجلدات ، ونشرت بين سنتي ١٧٨٥ و١٧٨٩ ؛ ثم نشر ترجمة حسنة للقرآن وأتبعها بكتاب في تفسير قواعد الدين الاسلامي تحت عنوان *Morale de Mahomet* ، وترجم بعض قصص ألف ليلة وليلة إلى الفرنسية ، ووضع أجرومية للغة العربية والعامية ظهرت بعد وفاته . وتوفي في باريس سنة ١٧٨٨ ، وهو دون الأربعين .

كان سافاري إذاً رحالة من طراز خاص ، أعدته مواهبه ومعارفه للقيام بدراسات حسنة في بلاد الشرق ؛ فقد درس اللغة العربية ، وعرف تاريخ الشرق ، وعرف كثيراً عن الاسلام والشريعة الاسلامية ؛ ومن ثم كانت رسائله عن مصر تمتاز بطابع من الدقة لا يجده في كثير من الكتب والدراسات المماثلة ، وهو يقدم إلينا هذه الرسائل تحت عنوان « رسائل عن مصر » *Lettres sur L'egypte* ، ويصف لنا محتوياتها فيما يأتي : « بها وصف لخلال أهل مصر القديمة والحديثة ووصف لنظم الدولة ، وأحوال التجارة والزراعة ، وغزو القديس لويس لدمياط منقولاً عن جوانفيل والروايات العربية ، ومعها خرائط جغرافية » ويهدي سافاري كتابه إلى « صاحب السمو أخي الملك . . لما أسبغه عليه من مؤازرة مكتته من نشر رسائله ، وإنه لشرف عظيم أن يتوجه باسم مولاه . . » ويوجه رسائله إلى هذا الأمير أخي الملك ؛ وقد كان ملك فرنسا يومئذ هو لويس السادس عشر وأخوه الدوق دورليان . ويبدو مما كتبه سافاري في رسالته الأولى أن الأمير المشار إليه هو الذي نصحه عند سفره أن يدرس أحوال المجتمعات التي اعترم زيارتها وخلالها وعاداتها ولغاتها . وقد كان لآثار مصر الفرعونية وذكرياتنا القديمة في نفس سافاري أعظم الأثر ، وهو يعرب لنا في مقدمته عن عظيم إعجاب به بذلك التراث الباهر ، ويقول لنا : « إن من يرى الآثار التي

حكم مصر منهم عدة بدأت بآبراهيم بك ورضوان بك ، ثم على بك الكبير . فحمد بك أبي الذهب ، فراد وبرايم . على أن هذا الحكم الداخلي المستقل كان نوعاً من المقاومة التي لا تستند إلى قوة مادية يخشى بأسها أو تأييد شعبي حقيقي ، وكانت مصر عاجزة عن مواجهة الأخطار الخارجية دون معاونة الدولة العثمانية . ففي تلك الفترة التي انهارت فيها قوى الدولة العثمانية ، والتي تركت مصر فيها مفتوحة الأبواب دون حماية حقيقية ، زرى ثباتاً من الرحل الغربيين يفدون عليها في فترات متقاربة ، ويدرسون أحوالها وشؤونها بعناية ودقة ؛ وكان جل هؤلاء الرحل من الفرنسيين والانتكلاير ؛ فهل كان مقدمهم إلى مصر في تلك الظروف أمراً عرضياً ؟ وهل كانوا طلاب سياحة وثقافة ودرس فقط ؟ أم كانوا طلائع الاستعمار الغربي المتوثب يومئذ ، قدموا إلى مصر يجوسون خلالها ويتفقدون شئونها وأسرارها تمهيداً لمشاريع يجيش بها هذا الاستعمار ؟ بلوح لنا أن هذه الرحلات والدراسات المستفيضة لم تكن بريئة كل البراءة ، ولم تكن ببيدة كل البعد عن وحي الاستعمار ومشاريعه ؛ ولقد ألقى الاستعمار في هذه الدراسات كل ما يرغب في معرفته عن مصر وعن أحوالها الاقتصادية والسياسية بالأخص عن قواها الدفاعية . وفي خاتمة القرن الثامن عشر دبر لاستعمار الأوربي أول مشاريعه لاقتراس مصر ، وجاء بونابرت لي مصر تحدهم أحلام امبراطورية عظيمة ، كان يعتقد أنه ستطيع أن يتخذ مصر قاعدة لتحقيقها .

وكان في مقدمة الرحل الذين قدموا إلى مصر قبل الفتح فرنسي بقليل رحالة ومستشرق فرنسي ترك لنا عن مصر في اواخر القرن الثامن عشر أتراً من أنفس الآثار وأقيمها ، فان رحالة العلامة هو كلود إتيان سافاري (Savary) ، الذي قدم إلى مصر في سنة ١٧٧٦ ، تحدهم أحلام مشرقية باهرة ؛ وكان يولد في قفري سنة ١٧٥٠ ، ودرس دراسة جامعية حسنة في ن وباريس ، وكان في السادسة والعشرين من عمره حينما اعترم برحلة إلى الشرق يجذب بهاء الشرق وروعته ؛ وقضى في مصر لثة أعوام طاف خلالها أرجاء الديار المصرية من شرقها إلى غربها

جاهل ؛ وهو يقول لنا بحق إن الفتح التركي كان خاتمة لجد مصر وإن حكم الباشوات قضى على العلوم والآداب ، وخرب التجارة والصناعة والزراعة ، وأسبغ حجاباً من العفاء الشامل على كل ما كان لمصر الاسلامية من عظمة ورياء

ثم ينتقل سافاري من الاسكندرية إلى رشيد ، ويقضى بها رداً من الزمن ، ويصف لنا رشيد وأهلها وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية في عدة رسائل شائقة ؛ ويقول لنا إن الحياة فيها ساحرة مغرية ، وإن لأهلها أزياء خاصة ، وإنهم يقصون الشعر ويرسلون اللحى ؛ ثم يقصد بعد ذلك إلى القاهرة في مركب شراعى ، ويحترق فرع رشيد ماراً ببعض القرى الشهيرة يومئذ مثل برمبال ومحلة أمير ، ويصف لنا هذه الرحلة البطيئة الشائقة ، ويصف لنا بالأخص منظر القرويات على الشاطئ ، وكيف يهرعن إلى النهر لأخذ الماء وغسل الثياب والاستحمام أحياناً ، وكيف شهد كثيرات منهن يسبحن في النهر نحو المركب وهن يصحن : « يا سيدى هات ميدى ^(١) » ويقول لنا في لغة شعرية : إنهن يسبحن في كثير من الظرف ، وإنهن يتمتعن بأجسام رشيقة ساحرة ، وبشرة سمراء بديمة

وفي هذه المواطن وأمثالها تبدو براعة سافاري الوصفية وتبدو قوة بيانه . والواقع أن سافاري يكتب بأسلوب رفيع سوا من الناحية العلمية أو الناحية الأدبية ؛ ولا يفوته أن يقدم إلينا خلال وصفه كثيراً من المقارنات التاريخية والأدبية الشائقة وهو من هذه الناحية يتفوق على كثير من الرحل الذين كتبوا عن مصر ؛ كما أن رسائله تمتاز كما قدمنا بطابعها العلمى الدقيق

وسنرى عند ما يتم سافاري رحلته النيلية ، ويصل إلى مدينة القاهرة أى صور قوية شائقة يقدمها إلينا هذا الرحالة العلامة عن حياة العاصمة المصرية والمجتمع المصرى في أواخر القرن الثامن عشر ؛ وسنرى أى وثيقة نفيسة تقدمها إلينا رسائله عن تاريخ مصر السياسى والاجتماعى والاقتصادى في هذه الفترة المضطر التى تميز مصادرها ووثائقها

محمد عبد الله عثمان

فيما في أوائل سحبر

« للبحث بقية »

تحتفظ بها مصر ، يستطيع أن يتصور أى شعب هذا الذى تحدث صروحه أحداث الزمن . فهو لم يكن يعمل إلا للخلود ؛ وهو الذى أمد هوميروس وهيرودوت وأفلاطون بكنوز معارفهم التى أسبقوها على بلادهم ؛ وإنه لمن الأسف أن العلم لم يستطع بعد أن يكشف عن أسرار النفوس الفرعونية (الميروغليفية) التى تنص بها هذه البلاد الغنية ، فمعرفة هذه الأسرار تلقى ضياء على التاريخ القديم ، وتبدد الظلمات التى تكتنف عصور التاريخ الأولى » وقد تحققت أمنية سافاري بعد ذلك بقليل ، إذ اكتشف حجر رشيد ووقف العلم على أسرار اللغة الفرعونية ، وبدأت البحوث الأثرية بين الأطلال والآثار الفرعونية تكشف تباعاً منذ أوائل القرن التاسع عشر عن روعة هذه المدينة الفرعونية الباهرة التى ما زالت هياكلها وآثارها العظيمة ، مدى المصور مثال الإعجاب والاجلال والتقدير .

ويبدأ سافاري رسائله عن مصر من الاسكندرية في ٢٤ يولييه سنة ١٧٧٧ بعد أن مكث في مصر أكثر من عامين ، ويوجهها جميعاً إلى هذا الأمير الذى يهدى إليه كتابه ، ويستهلها بوصف جامع لجغرافية مصر ، ثم وصف بديع لمدينة الاسكندرية وآثارها الرومانية ؛ ويستعرض بعد ذلك حوادث الفتح العربى ، ودخول الاسكندرية في ظل الحكم الاسلامي ، ويمطف على قصة مكتبة البطالسة الشهيرة ، وينقل خرافة إحراقها بأمر عمر عن بعض الروايات العربية . ويبدو مما يكتب سافاري أن الاسكندرية كانت في أواخر القرن الثامن عشر لا تزال تحتفظ بقسط من عظمتها القديمة وتجارتها الزاهرة برغم الأحداث الكثيرة التى مرت بها . وكان مما أثار اهتمام الرحالة بنوع خاص منظر عمود السوارى وما يحيط به من الأسرار المعلقة ، والمسلات التى كانت تسمى يومئذ « إبرة كيلوبارة » والمقابر الرومانية ، أو كما يسميها مدينة الأموات ولم يفت سافاري أن يلاحظ آثار الفتح العثمانى المحتربة ؛ فهو قد درس تاريخ مصر الزاهر في عهد الدولة الاسلامية ، واستطاع أن يقدر مما شاهده يومئذ من أحوال مصر تلك النتائج المحزنة التى انتهت إليها بعد قرنين ونصف قرن من حكم غشوم عاسف

(١) اليدى عملة صغيرة من تهود هذا العصر